من تاريخ اللغة العربية
طرائف لغوية من العصر المملوكي

أ.د. محمد حسن عبد العزيز (*)

مهاد

العصر المملوكي:

أكثرَ صلاح الدين الأيوبي وخلفاؤه من بعده من جلب الأتراك، وبذلوا الأموال الضخمة في شرائهم بغية الاعتزاز بقوتهم.

استمرت الدولة الأيوبية من ٥٦٧هـ إلى ٦٤٨هـ، وبسقوط دولتهم وسيطرة الأتراك الذين جلبوهم بدأت دولة المماليك بزواج شجرة الدر الأرمينية التركية من عز الدين أيبك أتابك العسكر، وتنازلها عن العرش، وبذلك أصبح سلطانًا على مصر، وبه تبدأ دولة المماليك ٦٤٨هـ ـ ١٢٥٠هـ.

كان أغلب المماليك تُجلب من جزيرة القِرم وبلاد القوقاز والقَفْجاق وآسيا الصغرى: فارس وتركستان وبلاد ما وراء النهر، فكانوا بذلك خليطًا من الأتراك والجراكسة والروم والروس.

وكان المماليك يُجلبون وهم صبيان، ويربون تربية عسكرية خاصة، ويدربون على التخلق بأخلاق الرجال، فضلًا عن تجهيزهم وتربيتهم على فنون الحرب بصورة رائعة.

اعتنق المماليك الإسلام على مذهب أهل السنة. دافع المماليك عن أرض الإسلام وصد هجمات الصليبيين والمغول، وفي عهودهم أصبحت القاهرة حاضرة العالم الإسلامي، ولهذا رحَّب بهم المصريون حكامًا للبلاد، ولم يجدوا غضاضة على أنفسهم من ذلك.

(*) أستاذ علم اللغة بكلية دار العلوم – جامعة القاهرة – عضو مجمع اللغة العربية بالقاهرة.

وقد أفاض المؤرخون عما كان يحدث بين المماليك من صراع على السلطنة، وخروج الأمراء على السلاطين بالمؤامرات والخداع والخيانة، وفي كتاب ابن إياس صورة مروعة لهذه الأحداث.

والمعتاد في عهودهم أن السلطان كان في أول أمره أميرًا من الأمراء، وزعيمًا من الزعماء مكنته قوته وشخصيته وكثرة مماليكه من التفوق على أقرانه والوصول إلى منصب السلطنة.

كانت دولة المماليك دولة إقطاعية طبقية بكل معاني الكلمة، فقُسِّمت أراضي مصر إلى أربعة وعشرين قيراطًا، اختص السلطان بأربعة منها للكُلف والرواتب، واختص الأمراء بعشرة، والعشرة الباقية كانت من نصيب المماليك السلطانية وأجناد الحلقة والعُرْبان والتركمان، وكان من الطبيعي أن يستأثر السلطان وكبار الأمراء بأجود الأراضي وأكثرها خصوبة.

وظل المماليك طوال حكمهم طبقة منفصلة عن سائر السكان في مصر والشام، فلم يتزوجوا منهم ولا يزوجوهم، وانعزلوا عنهم، ومن ثم ظل أهل البلاد في عهدهم لا يعنيهم شيء من أمر الأحداث الكبرى والخارجية التي أحاطت بمجتمعهم.

ولقي الفلاحون ــ وهم السواد الأعظم من أهل البلاد ــ معاملة سيئة؛ يوصفون بالجهل والتأخر وخشونة الطبع وقذارة المنظر.

عاش الفلاح المصري في عصر سلاطين المماليك مربوطًا بالأرض يُفلحها ويُفني حياته في خدمتها، وليس له من خيراتها إلا القليل، وزاد من أحواله سوءًا ما كان يفرضه عليه الحكام من المغارم وما يحدثونه من المظالم. ويقول ابن إياس في هذا: "اختل إقليم مصر غاية ما يكون الاختلال بسبب ذلك".

ومع ما سبق، فقد كانت للمماليك عناية كبيرة بالعلم والعلماء، فأنشأوا المدارس الكثيرة، وغُصت المساجد والمدارس بخزائن الكتب ونوادر المصنفات، وأجروا على العلماء والطلاب الأرزاق الطيبة، وقد غلبت الناحية الموسوعية على علماء هذا العصر، فكان العالم منهم فقيهًا وأديبًا ومحدِّثًا ولغويًّا... إلخ، ومن ثم لا نجد جديدًا يذكر فيما وصل إليهم من تراث العصر

العباسي الزاهر، ومع ذلك فقد حافظوا على هذا التراث، وحُمل إلينا أكثره.

وبعد، فالطرائف اللغوية التي اخترناها من تراث العصر المملوكي مستخرجة من كتابين هامين شاهدين على مجتمع أهل مصر ولغتهم؛ أما الأول فهو كتاب (نزهة النفوس ومُضحك العبوس) للشاعر ابن سودون، والثاني فهو كتاب (بدائع الزهور في وقائع الدهور) للمؤرخ ابن إياس.

أولًا: ديوان (نزهة النفوس ومُضحك العبوس) للشاعر ابن سودون:

الشاعر علي بن سودون البشبغاوي المولود بالقاهرة ٨١٠هـ، والمتوفى بدمشق سنة ٨٦٨ هـ.

تلقى علوم الشريعة والنحو والعروض وغيرها من العلوم على مشايخ عصره، وتعاطى الأدب وبرع فيه، ولكنه سلك في أكثره طريقة فريدة هي غاية في المجون والهزل والخلاعة، فراج أمره فيها جدًّا، وطار اسمه في سماء الأدب، وتنافس الظرفاء ومن نحا نحوهم في تحصيل ديوانه.

ويقال إن والده كان قاضيًا بمصر، وكان ذا مال تمتع به ولده من بداية حياته، وحين تعاطى التمسخر مع الأراذل بدمشق غضب عليه أبوه وضيَّق عليه في النفقة.

وعلى الجملة كان ابن سودون عالمًا متقنًا أديبًا صناعًا، ماجنًا يلتزم الفكاهة.

ترك لنا ابن سودون ديوانًا حافلًا بالمجون والفكاهة، وهو تراث خالد في الأدب العامي والفصيح نشاهد فيه حياة المجتمع المصري من جميع نواحيه السياسية والاجتماعية والاقتصادية، وغير ذلك مما هو شائع في كتابه.

وليس الديوان خالصًا للهزل والمجون كما رأى بعض الباحثين، ففيه إلى جانب الفصول الهزلية أو الهَبالية باب كامل في الجِدِّيات أخلصه للغزل وللمدائح النبوية والمواعظ يبلغ قريبًا من ربع الكتاب، وليس الديوان شعرًا فحسب، ففيه فصول نثرية.

ولغة الكتاب ــ في عموم نصوصه ــ فُصْعَمِيَّة؛ بها مفردات مشتركة يستعملها العامة والخاصة، وبها مفردات تنفرد بها الخاصة، وبها قليل من

المفردات والتعابير العامية يجيء في نسيج التعبير الفصيح الشائع في الكتاب، أو هي ــ بعبارة أخرى ــ: عامية مكتوبة، عامتها في تراكيب فصيحة مُعْرَبة، وأقلها عامي غير مُعْرَب، وأغلبها عربي الأصل، وقليل منها مُعَرَّب.

ثانيًا: كتاب (بدائع الزهور في وقائع الدهور) للمؤرخ ابن إياس:

المؤرخ ابن إياس هو: أبو البركات محمد بن أحمد بن إياس، ولد عام ٨٥٢هـ - ١٤٤٨م لأسرة تركية شاركت في بعض وظائف الدولة الكبرى، وقد كان هو نفسه رجلًا بارزًا، له صلات بكثير من الأمراء وأصحاب المناصب الرفعية. توفي سنة ٩٣٠هـ - ١٥٢٤م.

وكتاب (بدائع الزهور في وقائع الدهور) هو المؤلَّف الأساسي لابن إياس، بدأ بعرض موجز عن تاريخ مصر حتى السلطان قايبتاي، ثم بعرض مفصل لأحداث عصره هو حتى عام ٩٢٨هـ - ١٥٢٢م. ويتناول هذا العرض أخبار مصر أساسًا، كما يتناول أخبار البلاد العربية الأخرى بإيجاز. وفي تاريخ مصر يُعنى بأسماء السلاطين الذين حكموها، وبعض الحوادث التي وقعت فيها... إلخ، فضلًا عن تاريخ بلاد الشام وفلسطين والحجاز التي كانت تابعة للحكم المصري آنذاك.

وكان مَعْنِيًّا - بخاصة - بأن يزين عرضه للأحداث بالأشعار والأزجال، ولم يتحفظ عن ذكر الفضائح والجرائم والنوازل التي وقعت في عصره، وفي بعض المواضع نجد نقدًا حادًّا لنظام الضرائب الظالم الذي عانى منه المصريون، وللإهمال المستشري في الجيش.

والكتاب من أهم الكتب التي عُنيت بالأحوال الاقتصادية والثقافية والأدبية والمعمارية والفنية والأعياد وما يصحبها من مظاهر، وغير ذلك من نواحي الحياة الاجتماعية.

ولغة ابن إياس في كتابه لها سمات خاصة، فهي لغة عربية فصيحة بسيطة غالبًا قريبة إلى العامية، واللحن فيها شائع.

تعبيرات ومفردات من ديوان (نزهة النفوس) لابن سودون

لغة الأطفال:

أُولع ابن سُودون بالألفاظ التي تتردد على ألسنة الأطفال، وما يستعمله الأهل منها ولعًا شديدًا في ثنايا مقطعاته الشعرية، وحكاياته الطريفة عن طعامهم وشرابهم وملابسهم، وبخاصة حادثة الختان أو الطُّهور. ومن أمثلة ذلك:

يتحدث عن أمه وكيف كانت تُربِّيه:

وطالما دَلَّعتني حالَ تَرْبِيَتي ... حتى طَلَعْتُ كما كانت تُرَبِّيني

أقول: مَمَّ مَمَّ بِلْأَكْلِ تُطْعمني ... أقول: امبو تجي بالماءِ تسقيني

إن صحتُ في ليلةٍ وِيْ وِيْ لأسْهِرها ... تقول: ها ها بِهَزٍّ كي تُنَنِّيني (ص٥٧)

فالألفاظ (مَمَّ) لطلب الطعام، و (أمبو) لطلب الماء، و (وِيْ وِيْ) للبكاء، و (ها ها) صوت تطلقه الأمُّ لتهدئة الطفل كي ينام، وكذلك (تُنَنِّيني) من (نِنَّ نِنَّ)[1].

ما أحسنُوا من فوقْ ثيابُو ... مَرْيَلَى على صُدَيْرُو (ص٨١)

وَبسلَّار كَمانَه ... فوقْ قُماشي سلَّروني (ص٨٢)

سلَّار: قُباء بلا أكمام.

ميمة

ميمتو قومي تعالي (ص٧٨)

الميمة: الأم.

بابِتي

الله يبقِّيني زمانْ ... لِميمتي وبابِتي (ص١٠٠)

تُتُّو ونُنُّو

(١) أنبو: أي ماء في لغة الأطفال، فارسي، معجم تيمور، ٧٤/٢. مَمَّ أو مَمَّة: لطلب الأكل، معجم تيمور، ٣٩٨/٥. وتا تا: تقال للطفل حين يمشي، المحكم، ص٤٤. ولعل (هاها) هي (هَهْ هَهْ).

إن عِطِــش يقــول أُمْبُــو وإذا جاعْ قال مَمَّ مَــمَّ
ويقــــول تُتُّــــو ونُنُّــــو إن تقعَّــدْ أو تَنَــوَّمْ (ص٨١)

فكلمة (تُتُّو) تعني طلب القعود، و (نُنُّو) طلب النوم، و (مَمَّ مَمَّ) طلب الطعام.

وفي حكاية من حكاياته الطريفة يتحدث عن نعمة الله على الإنسان فيقول عن الطفل:

عَلَّم أمه وإن كان أخرس معنى لغاته: تُرَقِّده إذا قال (تُتُّو)، تُمشِّيه إذا قال (تاته)، يفرح بالدَّح يحب النَّح، يكره من يقول بَحْ[1]. (ص٥٢)

دادة ولالة

وسَخَّر له أُمًّا وأَبًا ودادة ولالة (ص٥٢)

الدادة: ترادفها الحاضنة، ودادة السلطان من تحضنه وتُرَبيه[2]، ودادة مُرْضِعة أو داية، ودادا لقب تشريف عند البربر[3].

لالا: مربية، لالة السلطان[4]. وفي شفاء الغليل: لالا: المربي من الخدم: مبتذل عامي مُعرَّب، وعليه شواهد، ولالَّا: الزوجة الأولى من زوجات ملك المغرب[5].

نِنِّي

ما أحسن النِّني بِتَخْتُو حِينْ يقوم يفتح عُوَيْنُو (ص٨١)

تقول: فلان ضرب فلان على نِنِّي عينه: تريد حدقته، نيني (**Nina**) كلمة أسبانية بمعنى: حدقة[6].

---

(١) الدح: كلمة استحسان تقال للأطفال وللشيء المليح. وبَحْ: تقال للاشيء أو لفنائه.
(٢) معجم تيمور، ٢٣٥/٣.
(٣) تكملة المعاجم، ٢٦٧/٤، ٢٦٨.
(٤) معجم تيمور، ٢٧١/٥، ٢٧٢. شفاء الغليل.
(٥) تكملة المعاجم، ١٩٠/٩.
(٦) المحكم، ص٢٣٦. تكملة المعاجم، ٢١٨/١٠.

مَرْيَلَى

ما أحسنُوا من فوقْ ثيابُو مَرْيَلَى على صُدَيْرُو (ص٨١)

مريلة: صِيغت من الرِّيالة: اللُّعاب والريق؛ لأنها يُتَّقَى بها من لعاب الأطفال على صدورهم[١]، ريالة: لعاب، وريَّل: سال لعابه[٢].

بابا، ماما

أنا وِدني هي وِدني وبها أسمع ابني حينْ يقول بابا (ص١١٧)

بابتِي خُذْ لي فُوَيْنِيس مثل خَيِّ ذي الصُّغير

قالْ لها نعـــمْ يبابـــا وعَلِي هذا ضَرُوري (ص٨١)

يَبابَا: قصَّر ألف (يا). وعَلِي: اسم المؤلف. (بابا) للأب عند الصبيان[٣]، و (ماما) للأم عند الصغار[٤].

أساليب:

أسلوب التعجب:

يكثر استعمال أسلوب التعجب في النص، وتتعدد أشكال التعبير عنه من غير (يا) النداء:

أُخّيه ما أحلاه من خلقة الله! (ص٩١)

أُخِّيه بضم الهمزة وتشديد الخاء المعجمة: عند استحسان شيء.

يعملوه جُلَّاب وسُكّر شِي عجب ما أبركو في الدور (ص٩٨)

الجُلَّاب: ماء الورد.

ومعه (يا) النداء:

ياما أحسن البحر والواحد حِداه مسطول (ص١٣٠)

ياما أُحيلا الموز وهو مُقشَّر يُرْخى عليه القطر والعسلول (ص٤٥)

---

(١) معجم تيمور، ٣/٣٥٠.

(٢) تكملة المعاجم، ٥/٢٦٧.

(٣) معجم تيمور، ٢/٩٣.

(٤) معجم تيمور، ٥/٣٠٦.

يَمــا رَايــت فـــي حارتي يا ناسُ يومْ إصرافتـــي[1] (ص١٠٠)

يما: ياما. رايت: رأيت.

عبارات مصكوكة:

يقول ابن سودون في مطلع الفصل الخامس من (التحف العجيبة والطرف الغريبة): "اعلم أن هذا مما شاع وذاع وملأ الأسماع" (ص١٣٤)

ومن العبارات المصكوكة من هذا القبيل:

توتة توتة فِرغت الحدُّوتة (ص١٥٤)

والحدوتة: هي الأُحدوثة. وفي تقويم اللسان لابن الجوزي: صار فلان حدوتة، والصواب (أحدوثة)، وهي أيضًا لعبة للأطفال[2]، وما زال هذا التعبير مستعملًا بين الأطفال حين يحكى لهم قصة، وعند نهايتها يقال: توتة توتة فِرغت الحدُّوتة.

شقع بقع

وادي فُمَيمي يُشْتُمــكْ إن كنت شاطرْ قلْ بوقعْ
حَطُّوك حدايا في طبقْ وحينْ فرحت بُو ارتفعْ
فاشتلــتُ وارتفعتَ نا واشتال هو ولا ارتفــعْ
فقلــت حيــن تَشايَلُوهْ شَقَــعْ بَقــعْ يالله يَقــعْ

اشتال: حَمَل. تشايل: تفاعل من شال: حمل.

تقول الصبية في ألعابها: شُقع بُقع يا رب يُقع، وما أدري أين شقع وبقع، أي أين ذهب، كأنه قال: إلى أي بقعة من البقاع ذهب، ولا يقال إلا في الجحد[3]، والشقْع كلمة تقال وتردف بالرقْع، ويقولون: فلان بات يشقع ويرقع:

---

(١) ياما: كم، وهي إشارة تعجب مثاله: ياما جمع مال، وجمعمال ياما، وقد تأتي للتعبير عن الكثرة، ياما انبسطنان ويا النداء تجيء للتعجب من الكثرة ومعها ضمير يناسب المقام: يا له من سكر، يا لك من مغفل.

(٢) معجم تيمور، ٨٢/٣، ٨٣.

(٣) المحكم، ص١٢٦.

أي يضرب نفسه[1]، وما زال هذا التعبير مستعملًا حتى اليوم.

حِسَّك

يا قطر بسَّك تغيب أنا أريد بَسَّك
حِسَّكْ لغيري تروحْ هُو يعدمَك حِسَّك (ص٩٩)

يقولون: حِسَّك تعمل كذا: أي احذر أن تفعل كذا، مفعول مطلق لفعل محذوف، أي اجمع حسك ولا تفعل، أو نحو ذلك[2].

بَسَّك

بالمسكِ والعودْ معجون مُبخَّر بَسَّكْ تعالى (ص٩٩)

بَسَّك: حَسْبُك: تعال، ويستعمل للتحذير والتهديد، وبسْ بمعنى: اكفف، ولعلها فارسية[3].

حِسَّك بَسَّك

هل يمكن أن تفعل كذا، ويقال: جِئْ به من حِسك وبسك، أي ائت به على حال من حيث شئت[4].

يا فرحة جتْ ولا تمت

يا فرحة جتْ غلط في النومْ وما تمّتْ
من شِي على عِشقتُو أحشاي انْضَمِّتْ (ص١٢٩)

توبة من دي النوبة

جا وقالْ توبة قلت دي النَّوْبة (ص١٢١)

حوالينا ولا علينا

والحمدُ لله الذي كانوا فِدايه، واني ما كنت في القميص وإلا لو كنت فيه: "حوالينا ولا علَيْنه". (ص١٣٨)

---

(١) معجم تيمور، ٢١٥/٤.
(٢) معجم تيمور، ٩٨/٣.
(٣) معجم تيمور، ١٧٤/٢.
(٤) تكملة المعاجم، ٣٣٩/١.

حوالينا ولا علينه: دعاء بأن يقع الشر أو الأذى بعيدًا لا عليه، ويقول العامة: اسم الله حواليك، أي اسم الله مطيف بك، أي يحفظك[١]. وفي الحديث: اللهم حوالينا ولا علينا[٢].

من هَوْن لِفَين

واشتريت حماره سَوْده حتى لا تتوسخ، وبسّ كلام، فإني لو كتبت الذي في خاطري كان الكتاب يِجي من هَوْن لِفَين (ص١٣٩)

هون: لهجة شامية بمعنى: هنا، اسم إشارة ومثلها هونيك، أي هناك. وفين: أي في أين، والمعنى: من هنا إلى هناك، أي أبعد مكان.

أُفُّو عليك

فِيكَ يا كُرَيْمَة عنيقيدْ عالٍ ما أوصلْ لو
حامضْ وحِش ما اسْتَوى أُفُّو على شَكْلو (ص١٣١)

أُفُّو: من أف، كلمة تضجُّر وتكرُّه، تُضم همزتها وتُكسر.

بَسْ

واشتريت حُماره سَوْده حتى لا تتوسخ، وبس كلام، فإني لو كتبت الذي في خاطري كان الكتاب يِجي من هون لفين (ص١٣٩)

بس: أي اكفف، ولعلها فارسية، وهي اسم فعل أمر عامي، يقولون: بسك تلعب. وفي شفاء الغليل: بسْ بمعنى: حسب[٣]، وتستعمل كذلك بمعنى: أيضًا، يقولون: فعلت كذا بس، وما زال ذلك مستعملًا حتى اليوم.

أبو قردان زرع فدان ملوخية وبادنجان (ص١٣٤)

أبو قردان: طائر يتغذى على الحشرات، منقاره طويل، مُنْحنٍ لأسفل مثل المِنجل[٤].

---

(١) تكملة المعاجم.

(٢) المعجم المفهرس للحديث النبوي.

(٣) معجم تيمور، ١٧٤/٣.

(٤) معجم اللغة العربية المعاصرة، (قدر).

سَوَا سَوَا

وفي الصّين صِينيٌّ إذا ما طَرَقْتَه يَطنٌّ كصِينِي طرقْتَ سَوا سوا (ص٥٨)

سوا سوا: معًا.

من خلِّف ما مات

منْ خَلِّف أنا ما مات إعيشْ لكْ زمان وأبقَى (ص٩١)

هاتْ وخُذْ

هتْ وخُذْ مِنِّي كل مرضية (ص١٢٢)

من يطلب النَّحّ فلا يقول أحّ

من يطلب النحَّ فلا يقول أحّ (ص٩٢)

النّحُّ هنا: الصعب. وأح هنا: لا يشكو ولا يتألم. وأح: صوت المتوجــع، وحكاية صوت الساعل.

حَذَري بَزَري

لا بد لهذا من سبب حَزَري بَزري ماذا السبب (ص٤٧)

حَذَري: لعلها من حَزُّورة، وحَذَرَه: باغته وأمسكه فلم يُفلت، ولعله من حظره، وحزورة جمعها حوازير[١]، ويقال: إن صَدَقَني حزري: أي تقديري وتخميني، حزورة: أُحجية[٢]، وبزري: لعلها من فزورة، والفزورة: العقدة أو الأُحجية.

عَيَّط عَيْطة فلق الحيطة

فرَوَى بعضهم بعد هذا: عَيَّط عَيْطة فلق الحيطة (ص١٣٧)

الحيطة: الحائط، والحائط صوابُها، وفلق النخلة: شقها نصفين، وفلق الحيطة: شقها، مبالغة.

حرصنا على كتابة الأمثلة المختارة كما هي في الديوان، والديوان محقَّق وَفْق نُسخ أغلبها مشكول، وقد حَرَص محقِّقه على ما فيها من شكل.

---

(١) معجم تيمور، ٩٥/٣. تكملة المعاجم، ١٥٤/٣، ١٥٥.

(٢) معجم تيمور، ٤٥٧/٤، ١٤٨/٣.

أساليب من كتاب (بدائع الزهور في وقائع الدهور) لابن إياس

أساليب من العامة:

- قال ابن إياس: وأهل مصر ما يُطاقون من ألسنتهم إذا أطلقوها في حق الناس. ٥٣/٤
- "يا سلام سلم الحائط يتكلم"، قالتها العامة حين ادعى أحدهم أن حائط بيته يتكلم. انظر في هذه القصة ٢٤٥/٢/١-٢٤٨
- وفي هذه السنة جرت أمور شتى منها أنها قد تولى أربعةُ سلاطين في سنة حتى صاروا العوامُّ يقولون: أربع سلاطين في سنة وإيش دي العَيِّنة. ٧٧/٢
- دب خلاف بين الأتابكي يلبغا والأمير طيبغا الطويل فتنة، وكان الأمير طيبغا طويلا والأمير يلبغا قصيرا، فكانا إذا ركبا تُلَقِّح عليهما العوام الكلام، ويقولون: "يا طويل خذ حذرك من القصير". ٢٢/٢/١
- قابل العامة مرسوم خلع الأشرف وبَيْعَة الأمير أنوك بالرفض. فصارت العوام يرقصون ويقولون: "سلطان الجزيرة ما بِسْوَى شعيرة" يهزؤون بسيدي أنوك أنه لا يتم له الأمر. ٤٧/٢/١
- وصار برقوق وبركة يأخذون البراطيل والرشوة على ولاية الوظائف.. حتى قيل فيهم: "برقوق وبركة ضربا على الدنيا شبكة". ٢٢٠/٢/١
- وقد صنفت العامة غِنْوة، وهم يقولون: "النيل أوفى في أبيب خُش يا حبيب" لأنه جاء في غير موعده. ٢٢٩/٢
- عين السلطانُ الأميرَ قانصوه بن سلطان جركس بأن يتوجه إلى الشرقية كاشفًا.... فازدادوا عصيانًا وسموه: "هات لبن". ٢٥/٤ لأنه كثيرًا ما كان يردد هذه العبارة.

الكاشف هنا معناها: رئيس الفرقة المكلفة بكشف أخبار العدو.

- صارت المماليك يمسكون الناس غصبًا.. ليعملوا في نقل الدريس، وتعطلت أحوال الناس بسبب ذلك حتى صنفوا العوامِّ رقصةً وهم يقولون: "اهرب يا تعيس وإلا يِحَمِّلوك الدريس". ٩٢/٤
- وكان الظاهر قانصوه مسلوب الاختيار مع الأمراء مهما يقولون له يقول: يِخْشى، فسمته العوام: "يِخْشى". ٣/ ٤٣٧
- كما سموا العوام الظاهر يلباي: "إيش كنت أنا قُل لو"، وكان لا رأي له فيما يعرض عليه من قِصص. ٤٣٧/٣

القصص هنا معناها: ما يعرض على السلطان وغيره من الأمراء من شكاوى ومطالب الناس.

- خرج الناس تتفرج على المحمل حتى صنفوا رقصة وهم يقولون:

* بيع اللِّحاف والطُّرَّاحة حتى أرى ذي الرماحة

* بيع لحافي ذي المخمل حتى أرى شكل المحمل ٦١/٤

- كان السلطان الناصر أحمد سلطانًا على الديار المصرية ٧٤٢هـ، وقد قرر الأميرَ طشتمر الذي سماه العامة (حمص أخضر) نائبًا عنه في مصر، وكان ظالمًا غشومًا سيئ الخلق، قال فيه إبراهيم المعمار (ت ٧٤٩هـ):

وبالرِّشا حزت مالًا ملأت منه الخزانة

وكم عليك قلـوب يا حمص أخضر ملانة ٤٩٧/١/١

ملانة هنا بمعنيين: تورية ملآنة؛ أي مليئة، وملانة عند المصريين الحمص الأخضر.

- كان الأمير قرقماس الشعباني هو القائم في سلطنة الظاهر سيف الدين جقمق، ولكنه خرج عليه وكان بينهما قتال انكسر فيه قرقماس، وصنف فيه العامة غنوة.

يا قرقماس إفُّوا عليك عَمَلْت عَمْلة وِجَتْ عليك ٢/ ٢٠٢

- وقد رسم السلطان بإخراج خاير بك الذي تسلطن: وقد سمته العوام: "سلطان ليلة". لأنه لم يمكث في السلطنة إلا ليلة. ٧/٣

- ولم يظهر خبز الذرة فيما تقدم من الغلوات حتى صنفوا العوام رقصة وهم يقولون: زويجي ذي المسخرة يطعمني خبز الذرة. ٢٣٨/٣
- لما تسلطن أيبك التركماني (وكان مملوكا أعتقه الملك الصالح نجم الدين أيوب) فلم ترض أهل مصر به، فكان إذا ركب يُسمعونه العوام ما يكره، ويقولون له: "نحن ما نريد إلا سلطانًا رئيسًا، ولد على فطرة الإسلام". ٢٨٩/١/١
- لما خرج قاضي العسكر (وكان يُضيِّق على النساء في عقود الأنكحة وفي الخروج إلى الأسواق... إلخ) صنّفت النساء رقصة، فقالوا: "قوموا بنا نقحب ونسكر قد خرج عنا قاضي العسكر" ٤٦٩/٥
- ومن حوادث سنة ٧٠٩ ه أن النيل توقف عن الوفاء بل نقص جدًا فشرقت البلاد.. وقد صنفوا أهل مصر كلامًا ولحنوه، وصاروا يغنون به العوام في أماكن المفترجات.

* سلطاننا رُكين ونايبو دُقين
* يجينا المآ من اين
* هاتوا لنا الأعرج يِجي المآ ويدَّحرج

وكان الأمير سلَّار النائب أجرود في حنكه بعض شعيرات؛ لأنه كان من التتار الخطاي فسمته العوام "دقين" وكان الملك الناصر محمد به بعض عرج فسمته العوام "الأعرج" وكان بيبرس الجاشنكير لقبه ركن الدين فسمته العوام "رُكين". ٤٢٥/١/١

- كان تقي الدين بن حِجة الشاعر ت ٨٣٧ ه هجَّاءً مفحشًا، وكان الناس يهجونه الهجو الفاحش، وكان يُحَنِّي ذقنه بالحِنَّاء فسموه "الحمار المحنِّي". ١٥٦/٢
- لهج الناس بالكتابة على الحيطان "مَنْ نصر الإسلام قتل الأعجام". ٨٠٣/٣/١
- وقع الغلاء بآمد حتى عزّت الأقوات، وصنفوا هناك غِنوة وهم يقولون:

* في آمد رأينا العُونه في كل خيمة مرجونه

* الغلام نهارو بِطحن والجندي بِجيب المونه ١٤٨/٢

العونة: السُّخْرة. مرجونة: مستقرة. المونة: القوت، وما يُدخر منه.

- ومن النكت اللطيفة أن أهل مصر صوروا هيئة الأتابكي قوصون في العلاليق، وهو مُسَمّر على جمل وعلقوه على دكان في باب زويلة. انظر في هذه القصة وما رواه ابن إياس فيها من شعر لإبراهيم المعمار. ٤٩٤/١/١
- كان الملك المؤيد شيخ يعرف ب "الخاصكي المجنون". ٤/٢

الخاصكي: مملوك يختاره السلطان في خدمته.

- وفي ٨٨٢ ه توفي ناصر الدين المارازاني الأستاذ في فن النشيد، وكان بارعا في فن الغناء، وقد حصل له فالج فأقام مدة طويلة حتى مات وكان يقول: "ارحموا من سكت حسّه وبطل نصفُه". ٣٤٦/٢

من أساليب السلاطين والأمراء:

- كان السلاطين من الأمراء يتكلمون – على اختلافهم – بلغاتهم، وما كانوا يتكلمون بالعربية الفصيحة، بل كانوا يتكلمون لغة ركيكة عامية.
- قال الأمير أينبك للخليفة المتوكل على الله محمد (وقد سخط عليه لأنه لم يوافقه على خلع السلطان المنصور علي بن الأشرف): "ما انت فالح إلا في اللعب بالحمام والاشتغال بالجواري المغنيات والضرب بالعود" وصار يبالغ في سبه ويوبخه بهذا الكلام الفاحش. ٢٠٥/٢/١
- قال برقوق لأيتمش الخاصكي: "يا مَرَا، يا عِلق، الذي يريد أن يقتل الملوك يقع إلى الأرض من ضربة قوس كُبّاد؟ ٣٠٨/٢/١ . كُبّاد: قوس مصنوع من شجر الكُبَّاد أي الليمون.
- شرع مقدم المماليك سنبل يقول لهم: يا أغوات عَبُّوا يرقكم حتى تسافروا سويسة (السويس) فضحكت عليه الناس بسبب ذلك. ٣٣٧/٤

اليرق: السلاح وما يحتاج إليه الجندي في سفره للحرب.

- وكان الديري قد أفتى في موت خَوَند زينب بأمر أزعج السلطان.. فقال له: الزم بيتك ولا تبقى تريني وجهك. ٣٩٨/٢
- قال لهم والي قطيا: امضوا إلى أستاذكما قولوا له: "إيش ما طلع من يدك افعله". ٢٨٨/٥
- قال لهم ملك الأمراء: "لا زلتوا حتى أوقعتوا بيني وبين نائب الشام، وأنتم تفروا وتروحوا إليه وتِشكو فِيّ عنده". ٣٢٢/٥
- فلما دخل السلطان إلى دمشق تخوفوا منه فنادى بالأمان والأطمان.. وأن الماضي ما يُعاد ونحن أولاد اليوم. (٤٤٧/٣/١)
- لم يقبل السلطان منهن عذرًا وقال لهن: "إنتم نساء قليلين العقول". ٥٠٩/١/١
- قال للقاصد: "إيش أعظم ما تبهدلوا به الناس عندكم؟ قال: "نرميهم بثيابهم في الماء فأمر بأن يُرموا في الماء. ١٦٨،١٦٧/٢

بهدل: أساء إليه، وأهانه، وحقَّره.

- قال السلطان: "إنتو تعلموا أني رجعت من التجريدة منكسرًا". ٤٠٩/١/١

التجريدة: الفرقة من العسكر الخيالة، والمقصود هنا الرجوع من القتال بسرعة دون أثقال.

- أرسل الملك الناصر محمد بن قلاوون ٧٠٩ ه إلى نائب حلب رسالة يقول فيها: ... خرجت من مصر وتركت لهم الملك ورضيت من الدنيا بأحقر الأماكن.. ليستريح خاطري من النكد، فما بيرجعوا عني. ٤٢٦/١/١.
- قال أبو اليزيد الخازن: "كان الظاهر برقوق صاحبي، وبيني وبينه عيش وملح، واخترت الموت على الحياة لإجله". ٤٠٨/٣/١.
- طلع إلى السلطان وشكا له من ابن العظمة فقال له السلطان: "أنت تشكي عندي من هذه الوظيفة وتقول: "باخسر فيها"، فقال له ناظر الخاص: "أَسِدُّ فيها بسعادة السلطان". ١٦٧/٤.

- كان ملك الأمراء يقول للسلاطين الجراكسة الذين يضربون الشهابي: "اضربوه قوي، هذا عدوكم الأكبر". ٥/٤٥٤.
- قال للإنكشاريين: "قولوا لأمير الأمراء: "إيش ما يطلع من يدك افعله". ٥/٢٨٧.

أساليب أخرى يستخدمها ابن إياس أو ينقلها:

- لم يكن لهؤلاء الثلاثة ذنب ولا حضروا قَتْلَةَ المملوك فقتلوا ظلمًا.. "وراحت على من راح". ٢/٤٢٨.
- أمر المماليك بقتل من وجدوه من العوام.. فقتل منهم ما لا يحصى"وراح الصالح بالطالح". ١/١/٣٥٤.
- اختفوا وصاروا ينقلوه من مكان إلى مكان والملك العزيز يتعثر، وقد"راحت السكرة وجاءت الفكرة". ٢/٢١٠. وانظر: تيمور: الأمثال العامية ص ٢٢١.
- كان عند ملاج الظاهري عيال كثير وأولاد وطلب إلى السلطان أن يقطعه إقطاعا طيبا لنفقتهم فلم يلتفت إليه، فنزل إلى داره وشنق نفسه فمات، وقد هانت عليه نفسه: "فراح القتل في كيسه ولا تأثر له أحد". ٣/٢٥٨.
- يتحدث ابن إياس عن مملوك قصد مصر لقتل بعض الأمراء يقول عنه بعد كشف أمره وقتله:"انكشف رُخُّه وافتضح". ٤/٢٧. والرخ: قطعة من قطع الشطرنج، ويقال أيضا: انكسر رخه ١/٢/١٨٦.
- أمر بشنق عشرين رجلًا كانوا قطاع طرق: قتالين قُتلا. ١/١/٢٧٥.
- فكانت الأطباء تدخل على جاري العادة كل يوم.. والقصاد رايحة جاية من المنصورة إلى القاهرة. ١/١/٢٧٩.
- كان بينه (الأمير قشتمر المنصوري) وبين الأمير يلبغا حظ نفس قديم. ١/٢/٦.
- ... أن مملوكًا تشاجر مع دلّال، فلما تزايد الأمر بينهما ضربه بقبقاب على رأسه، فحمل إلى داره فأقام نحو شهر، ثم مات "ولم تنتطح في ذلك شاتان". ٤/٢١٥.

- ضرب الأمير أرزمك الناشف شخصًا من النَّواتية فمات تحت الضرب، فلما مات وقف أولاده للسلطان، فلما علم بهذه الواقعة تغافل عن ذلك، وقال للأمير: "أرضِ أولاد هذا المقتول"، وانفض المجلس على ذلك "وراحت على من راح". ١١٥/٤.
- وكان الظاهر جقمق عنده "الدعوى لمن سبق لا لمن صدق". ٢٩٦/٥.
- قرر السلطانُ الأشرف إينال محمد البباي وزيرًا يقول عنه ابن إياس: "كان عنده عترسة وغرثلة في كلامه، عامي الطباع.. لا يقرأ ولا يكتب وكانت وزارته من "غلطات الزمان". ٤٣٢/٢.

الغرثلة والعترسة: الجفاء والعنف.

- وقال عن السلطان يلباي: "كانت أيام سلطنته شر أيام مع قصرها وكان أرشل قليل المعرفة. وكان يعرف بيلباي المجنون، وهو في غلاسة هو ومماليكه، وكان ملبسه غِلس وسماطه غلس وشكله سَمِج". ٤٦٦/٢.

(تيمور) فلان غِلس وفيه غلاسة، هو من الغَلَس بمعنى الظّلمة وغِلس الهيئة قذرها.

- وكان برقوق "ينام مع بركة على مخدة واحدة"، وهما من أعظم الإخوة الأشقة، فلما أقبلت عليهما الدنيا أفتَنَت بينهما. ٢٦٠/٢/١.
- وفيه ٩١٨ هـ تغير خاطر السلطان على الناصري محمد بن الشهابي، وأودعه في الترسيم وقرر عليه ألف دينار فأغلظ على السلطان في القول، وكان الناصري عنده شمم زائد ورقاعة فلم يرث له أحد من الناس فكتب وصيته ونفي إلى قوص: "والذي أكله كُرْكي تقاياه بلشون". ٢٦٦/٤

الترسيم: الحبس. والتوقيف: الإقامة الجبرية. والكُرْكي والبلاشون: من طيور الماء.

- قال بدر الدين الزيتوني في رثاء السلطان الأشرف الغوري:

* كان عليه عين ترقب زمان ملكو والسعادة حتى أصابوا عين ٩٩/٤

- وصار رنك الخليفة المتوكل مضروبا على غالب البيوت التي في القاهرة... وطاش الخليفة في تلك الأيام، وظن أن الحال يتم له "فكان القبَّان في آخره" ١٥٨/٥ القبان هنا بمعنى الحساب.

  الرنك: الشعار الذي يتخذه السلطان.
- صار المماليك الجلبان يتزايد شرهم، "وصاروا يأخذون شيءَ الناس بلاش من دكاكين التجار وغيرهم". ١٩٧/٣
- سُرَّ المماليك الجراكسة بذلك واستشروا بالفرح "ويا فرحة ما تمت" ٣٨٣/٥ وانظر: تيمور: الأمثال العامية ص٥١١.
- وغالب هؤلاء "ما يعرفون الله إلا وهم تحت الحَمْل". ٤٨٠/٥. (أي قُبيل وفاتهم وحملهم إلى قبورهم).
- الذين قتلوا التركماني هربوا، ولم يحصلوهم وقتلوا هؤلاء القوَّاسة ظلما "وراحت في كيسه". ٣٥٩/٥.
- كثر الدعاء للسلطان ططر، ولكن كما قال القائل: "يا حينُ. أعمار الجياد قصار" ٧٣/٢ (حين هنا بعنى عُمر)
- لما أعطى السلطان لعجمي يدعي صنعته الكيمياء أموالًا وصرفها بلا جدوى استخفَّ الناس عقلَ السلطان "وفسدت الطبخة". ٢٧١/٢.

* *

آخر المطاف

تكشف الطرائف اللغوية المختارة في هذا البحث عن حياة المصريين وحكامهم في العصر المملوكي، وعن طبيعة العلاقة بينهما.

وعلى الرغم من ترحيب المصريين بالمماليك اعترافًا بفضلهم في الدفاع عن الإسلام، وفي عهدهم أصبحت القاهرة حاضرة العالم الإسلامي، فإنهم ثاروا على حكمهم أحيانًا، ووُوجهت ثوراتهم بأبشع المواجهة، ولم يجد المصريون في التعبير عن سخطهم ومقاومتهم للظلم الذي حاق بهم إلا بالسخرية منهم وازدراء أحوالهم والتلقيح عليهم.

انظر مثلًا ما قالوه عن الصراع بين الأمراء على السلطنة واضطراب أحوال البلاد: (أربع سلاطين في سنه.. وإيش دي العينه! سلطان الجزيرة ما يسوى شعيرة)، وعن ضعف بعض السلاطين وخضوعهم للأمراء الأشداء المنافسين لهم (كان السلطان... مسلوب الاختيار، وكان السلطان... لا رأي له...)، وإلى سوء إدارتهم للبلاد، وأخذهم الرِّشا والبراطيل في ولاية الوظائف: (قالوا عن السلطان.. والسلطان.. ضربا على الدنيا شبكة)، وإلى ما تعرض له المصريون من السخرة أو العونة: (اهرب يا تعيس وإلا يحملوك الدريس)، وإلى معاملتهم للمصريين بقسوة واستهانتهم بحقوقهم، فالقتل عندهم بلا جريرة، والحكم لمن سبق لا لمن صدق، وانحيازهم لأبناء جلدتهم من الأتراك، أضف إلى ذلك اقتحامهم بيوتهم وحرماتها وسلب أموالهم.

وإلى غير ذلك من اعتراضات، وبلغت السخرة غايتها بإطلاق ألسنتهم بأبشع الألقاب: (حمص أخضر، يلباي المجنون، الحمار المِحَني...)، بل وتعليق تماثيل لهم من قماش وقطن، وما غنَّاه العامة فيهم وفي بعض تصرفاتهم.

وتكشف تلك الطرائف أيضًا – على قلة ما عرضناه منها – عن حياة المصريين اللغوية، وما يشيع فيها من أساليب على ألسنة العامة والخاصة.

انظر مثلًا: (توتة توتة فِرْغت الحدوتة.. وشقع بقع...) وغير ذلك مما لا يزال يُستعمل في عاميتنا اليوم، وانظر أيضًا إلى ما يتداولونه من أمثال: (من يطلب الدح فلا يقول أح... إلخ).

ومن يقرأ ديوان ابن سودون وكتاب ابن إياس يسهل أن يلحظ ما لحق لغة المصريين عامة أو خاصة من تغيرات صوتية، ولا سيما في الأصوات الأسنانية، فالثاء تاء، والذال دال، والظاء ضاد... إلخ، وما عرض للغتهم من تغير في بنية الجملة: (حماره سوده) بدلًا من (سوداء) الفصيحة، والتعجب بطريقة خاصة: (يا ماحلا، يا ماالحسن)... إلخ.

ومن أطرف ما ذكرناه لغة الأطفال التي برع ابن سودون في ذكرها وفي تصريفها وفي الاشتقاق منها... إلخ.

وفيما ذكرناه شاهد ودليل على أن العامية المصرية المعاصرة ما هي إلا امتداد للعامية في العصر المملوكي.

وأُحيل القارئ القاصد إلى المزيد إلى معرفة تاريخ اللغة في هذا العصر مقرونة بالفصحى التراثية والعامية المصرية إلى كتابي (في تاريخ اللغة العربية: بحوث تمهيدية للمعجم التاريخي: اللغة في العصر المملوكي والعصر العثماني).

**

المصادر والمراجع

- ابن إياس، بدائع الزهور في وقائع الدهور، تحقيق: محمد مصطفى، دار الكتب المصرية.
- ابن سودون، نزهة النفوس ومضحك العبوس، تحقيق: أرنود فروليك، ليدن، هولندا، ١٩٩٨م، وسلسلة الذخائر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠١٠م.
- تيمور، أحمد، معجم تيمور الكبير في الألفاظ العامية، مطبعة دار الكتب المصرية.
- دوزي، رينهارت، تكملة المعاجم العربية، ترجمة: محمد سليم النعيمي، وزارة الثقافة بالعراق، ١٩٨٠م.
- عبد العزيز، محمد حسن، المعجم التاريخي للغة العربية: وثائق ونماذج، مكتبة دار السلام، ٢٠٠٨م.
- في تاريخ اللغة العربية: بحوث تمهيدية للمعجم التاريخي: اللغة العربية في العصر المملوكي والعصر العثماني، مكتبة الآداب، ٢٠١٨م.
- عيسى، أحمد، المحكم في أصوات الكلمات العامية، مكتبة مصطفى البابي الحلبي، ١٩٣٩م.

* * *